المحاضرة التاسعة

العائلة والقرابة

أولا: الأسرة النووية والأهمية الاجتماعية لتواصلها القرابي

إن كان "النظام القرابي في المجتمع التقليدي يتولى كل المهام الإقتصادية والإجتماعية للفرد، مما يسهم في ربط هذا الأخير به نظرا لما يوفره له من الاطمئنان النفسي والتكافل الإجتماعي، بالإضافة إلى كونه مصدر النفود والسلطة الإجتماعية له, فتتحدد مكانة الفرد بقدر مكانته في جماعته القرابية، وقد تبين من خلال نتائج البحث الميداني لعدة دراسات اجتماعية، أن الانفصال المجالي في الوسط الحضري أعاد إنتاج وظائف النظام القرابي لكنه بشكل يوافق خصائص المجتمع الحضري الحديث، حيث يقوم هذا الأخير بوظيفة هامة في حياة الأسرة النووية وهي وظيفة اجتماعية تجيب على طلب وحاجة معنوية أساسية وسط محيطها الخارجي، شأنها في ذلك شأن الحاجة إلى التعاون و التضامن في أوقات الشدة- حيث يعتبر النظام القرابي في ذلك أيضا المصدر والملجأ الوحيد المضمون - بل تتعداه أهمية ، حيث يعتبر مصدر هيبتها وقوتها ومكانتها وحمايتها الإجتماعية . في السابق قد ساعده القرب الجغرافي والإشتراك المجالي للعناصر القرابية فإن إتساع حجم الرقعة الجغرافية وإنفصال هؤلاء عن بعضهم لم يؤثر على هذه المهمة بل أعاد إنتاجها بشكل جديد يتناسب مع خصائص المجتمع الحديث .

إن حاجة الأسرة النووية في انفصالها المجالي إلى دائرتها القرابية، و تنصب في معنى واحد وهو تكوين وحدة اجتماعية قادرة على مواجهة المشاكل والأوقات الصعبة وكذا تلبية تلك الحاجة المعنوية في تحقيق : الهيبة ، المكانة ، الشعور بالحماية و القوة في مواجهة المحيط الخارجي وعليه ، فإن كان التوقان إلى الإستقلالية المجالية من الأمور البالغة الأهمية في حياة كل أسرة صغيرة، سيما وأن أغلبها في العينة مرت بمرحلة إنتقالية قبل الإنفصال فسرعان ما ولد هذا الأخير شعور هذه الأسر باالإغتراب وبأهمية دائرة القوة والحماية هذه في حياتها, وهذا ما يوضح أن الانفصال المجالي كان له الأثر الايجابي في إعادة تقييم الأسرة النووية لأقاربها، بل ويعد بمثابة مغناطيس جاذب يخضعها لمبدأ **"العصبية"** التي نعني به الالتحام بالتواصل من أجل مواجهة المحيط الخارجي, فالأسرة الزواجية في انفصالها المجالي ووسطها الخارجي لا يمكن أن تشعر بكليتها وتحقق مكانتها وهيبتها الاجتماعية إلا عن طريق الالتحام و إعادة إنتاج روابطها القرابية بالتواصل من أجل مواجهة هذا الوسط، على أساس أن هذا الأخير المتمثل في الجيران، أبناء الحي والأصدقاء.. إلخ, يصبح و كأنه مجتمع محلى مصغر، حيث ينظر إلى الأسرة على أساس انتماءاتها العائلية ومكانتها الاجتماعية، وتتحدد قوتها وهيبتها على قدر اتساع و كثافة عناصرها القرابية. وهو ما يفسر أيضا أن الحاجة للأمان والتقدير الاجتماعي لديها جذور عميقة في حياة الأسرة النووية المنفصلة، وإن كان الناس ميالون بطبعهم إلى احترام القوي

وتعظيمه, فإن هذه الأخيرة تجد قوتها وهيبتها في محافظتها على توصلها القرابي، حيث يوفر إحساسا وترتبط به إرتباطا, وما يعطي أهمية الى:

- فكرة الأسرة النووية عن مكانتها وسط محيطها الخارجي .

- صورتها عن نفسها أثناء تعاملها مع الناس .

وعليه فالأسرة وسط هذا المجتمع المحلي المصغر لا يمكن أن تكون في موقع قوة إلا في إطار محافظتها على هذه العصبية الباعثة على الشعور بالمكانة، الهيبة و الحماية .

ثانيا: الأسرة النووية و دورها في تدعيم القرابة

إن كان الاقتراب من دائرة القوة ، الهيبة و الحماية هذه كما أسلفنا الحديث تبقى مجرد رغبة، حيث أن عدة ظروف تحول دون أن تتحقق، فإن الأسرة النووية تسعى إلى تعويض ذلك من خلال إعادة إنتاج والمحافظة على تواصلها القرابي بعدة سلوكات اجتماعية منها:

- زيارتها المتكررة لأقاربها ودعوتهم لمشاركتها أفراحها طريقة ناجعة للقضاء على الحواجز التي من شأنها أن تؤدي إلى ضعف الروابط و تآكلها، وباالتالي إعادة التفاعل و إنتاج وتجديد هذه الأخيرة .
- تعمل الأسر على إرسال أبنائها عند أقاربها في الكثير من الأحيان سواء للمبيت أو قضاء بعض أوقات العطل، ولهذا أيضا نتائجه الإيجابية البالغة الأهمية فبالإضافة إلى أنه سلوك ناجع يساعدها على إعادة إنتاج و تقوية أواصر روابطها القرابية ، فإنه يعد عاملا فعالا لتعميق هذه الأخيرة و تواصلها عبر الأجيال، فينشأ أبناؤها و شعورهم متعلق بالأقارب، مما يسهم في تنمية و تعميق الاحساس بالانتماء إليهم والمشاركة في حياتهم . وشعور الطفل بانتمائه إلى أقاربه عن طريق هذا النوع من الإحتكاك, يتحدد له الكثير من الأمور التي يعتادها و يتعلمها و يمارسها في حياته، حيث يتشكل بمعاييرها ويرتبط بقواعد سلوكها، وعن طريق هذا الاحتكاك يتم نقل عادات و مفاهيم أسرية يمكن أن تستمر و تبقى كقاعدة عبر الأجيال .
- بالرغم من أن الانفصال المجالي يوفر لها كامل المقومات للاستقلالية بحياتها وتدبير شؤونها، خاصة فيما يتعلق بحل مشاكلها الأسرية بدون تدخل أي نوع من الأقارب، إلا أنها تلجأ في الكثير من الأحيان لطلب تدخل بعض هؤلاء و إشراكهم في حل بعض مشاكلها الأسرية، و هو كمؤشر دال على أن أسر العينة هي نووية شكلا فقط أما مضمونا فهي لا تملك المواصفات الفعلية التي تميز الأسرة النووية، إذ أنها من خلال هذا السلوك تحاول إلغاء العزلة و الإبقاء على العملية الاجتماعية تجاه أقاربها و تواصل التفاعل الاجتماعي معهم .
- وتسعى الاسرة للمحافظة على روابطها القرابية مما قد يعكر صفوها, وذلك برفضها أن يختار أبنائها الزواج من الأقارب, وهذا بنسبة 88.61% من مجموع

أسر العينة، هذا النمط من الزواج الذي ساهم في وقت مضى على حفظ التماسك العائلي وإعادة إنتاج و تعميق الروابط القرابية, إلا أنه وعلى الرغم من تغيير قاعدة الزواج القرابي من طرف الأولياء في وقتنا الحاضر وعند هذه الأسر، نجد أن الهدف بقي على ما هو عليه وهو حفظ تماسك الأسرة القرابية.

- أن التعاون كان المظهر المميز لأسر العينة و أقاربها ، وهو تعاون يكشف عن الترابط الوثيق وما تفرضه القرابة من حقوق وواجبات تلزم الأقارب بعضهم البعض، كذلك فإن تبادل المساعدة بنوعييها المادي والمعنوي لم يتغير، بل بقي كقاعدة اجتماعية غالبا ما عبرت عن التضامن وقوة الروابط في وقت مضى .

وعلى العموم فإن تعبير الأسرة النووية عن تمسكها بروابطها القرابية بأشكال من الصور والسلوكيات الاجتماعية: كالتضامن الاجتماعي، تبادل الزيارات الودية، تقديم المساعدات المادية والمعنوية ، إشراك الأقارب في حل بعض مشاكلها الخاصة...إلخ، ما هي في الواقع إلا هدفا و وسيلة في آن واحد. وسيلة لإعادة إنتاج روابطها القرابية والإبقاء على العملية الاجتماعية المتمثلة في التواصل القرابي، الذي يصبح ضرورة من أجل تحقيق هدفا ذا بعد اجتماعي غايته قضاء مصلحة معنوية هامة وهي الهيبة، المكانة الحماية والقوة، هذه الأخيرة التي لا غنى لها عنها في إنفصالها المجالي لمواجهة محيطها الخارجي .

ثالثا: الأسرة النووية وشبكة العلاقات الاجتماعية الجديدة

إن كانت التركيبة الاجتماعية و الدور الاجتماعي للفرد في البيئة الريفية يتحددان في ضوء العلاقات والروابط القرابية والعائلية فإن أهم ما يميز حياة المدن شبكة العلاقات الاجتماعية التي يقترحها، حيث تقوم الحياة في المدينة على أسس مغايرة من العلاقات الاجتماعية التي تمثلها علاقات المؤسسة وروابط المهنة ونوع العمل والوظيفة و كذا علاقات الجيرة والحي ، حيث أن هذه الأخيرة أصبحت تسير جنب إلى جنب مع الروابط المبنية على القرابة. وعلى ذلك فإن ظهور الأسرة النووية الذي جاء كنتيجة لتغير أسلوب الحياة الاجتماعية ككل بكل ما تحمله من قيم واتجاهات، ألزم أفرادها على التكيف مع ما شهدته مجالات الحياة من تغيرات و على ما يعرضه الانفصال المجالي و الوسط الحضري من شبكة علاقات جديدة .

ومن المسلمات النظرية ، أنه كلما زاد تباعد الأسرة النووية عن أقاربها كلما كانت أكثر عرضة للانفتاح على أنواع مختلفة من العلاقات الإجتماعية كالصداقة والجوار, لكن ما هو موقع هذه العلاقات الاجتماعية في حياة هذه الأسرة مقارنة بروابطها القرابية؟, وهل لواقع الإنفتاح عليها دور في زيادة ربط الأسرة النووية بأقاربها؟.

إن الانفصال المجالي في الوسط الحضري قد أتاح للأسرة النووية الانفتاح على أنواع جديدة ومتنوعة من أشكال العلاقات الاجتماعية, نتيجة للإحتكاك المتواصل سواء في

المجال السكني أي الجوار أو الحي بالإضافة إلى عنصر صديق العائلة، والمقصود به تلك العلاقة القوية التي تنشأ بين الأسرة النووية و أحد الأشخاص (قليل ما يكون رجل و إن كانت البداية عن طريقه فإن زوجته فيما بعد هي التي تحتل موقع هذا العنصر في حياة الأسرة النووية)، حيث وجد أن 52.03% من أسر العينة تقيم هذه العلاقة.

إلا أن هذه العلاقات في الواقع ، ماهي إلا استجابة لمقتضيات الحياة المستقلة، ولا يمكنها تعويض الروابط القرابية، حيث أن موقعها في حياة هذه الأسر هي موقع : العلاقات الثانوية التي لا ترتكز على قاعدة ثابتة مثل الرابطة الدموية، و بالتالي فإنها لا يمكن أن تشعر الأسرة النووية بكليتها وتحقق لها حاجتها المعنوية التي لا غنى لها عنها في وسطها الخارجي باعتبار أن أغلبية أسر العينة تفضل الاقتراب من الأقارب وعلى الرغم من دائرة العلاقات الاجتماعية المحيطة بها, بالإضافة إلى أنها مشوبة بنوع من الحذر وعدم الثقة المفرطة على الأقل في الأمور المتعلقة بالأسرار الخاصة ، بل أن تفتح الأسر على هذه النوعية من العلاقات جعلتها تعيد النظر فيها و مقارنتها بعناصرها القرابية ، و هذا ما ولد الرغبة في أن يكون أصدقاءهم وأصدقاء أبنائهم من الأقارب لعدة أسباب لعل من أهمها : الثقة والأمان الاجتماعي والنفسي.

في الواقع أن هذه الرغبة تفسر طبيعة العلاقات المبنية خارج إطار العائلة، حيث تظهر أنها علاقات نفعية في غالب الأحيان مثلما بينته النتائج، عكس ما إذا وجدت مصالح بين الأقارب فهي مصالح نابعة و مبنية من طبيعة هذه الروابط التي تلزم الأقارب ببعضهم بعض في كل الأوقات. وبناءا على هذا تصبح هذه العلاقات مؤقتة فقد تتلاشى لأتفه الأسباب في غالب الأحيان، في حين تبقى الروابط القرابية روابط مبنية على قاعدة دموية لا يمكن أن تصير مجرد علاقات اجتماعية, وعلى الرغم من حدوث بعض المشاكل التي قد تعكر صفوها في بعض الأحيان و تؤدي إلى تفككها، فإن حكم هذه الرابطة الدموية تجعل الأقارب يعملون على الظهور في المناسبات المختلفة و الأوقات الصعبة بمظهر الوحدة و التضامن، وهو الظاهر للعيان، وفي الكثير من الأحيان يحكمه الواجب وصلة الدم و الرقابة الاجتماعية .

إن القرابة تمثل أحد الدعائم التي ترتكز عليها الأسرة النووية في إنفصالها المجالي، حيث توفر نوعا من الاشباع المادية والمعنوية تتميز بدرجة عالية من الثبات مقارنة مع غيرها من العلاقات الاجتماعية الأخرى كالصداقة والجيرة. و هي وفق هذا المنظور ليست رابطة مبنية على صلة الدم فقط بل تتعداها إلى أن تصبح رابطة ذات معنى اجتماعي عميق، حيث تحمل في مضمونها أرقى أنواع العلاقات من زاوية التضامن التآزر، حفظ المكانة و السمعة، تحقيق الهيبة والقوة، و هو ما لا يمكن أن تجده الأسرة النووية في شبكة العلاقات التي يقترحها الانفصال المجالي في الوسط الحضري، لذلك فهي تسعى دائما إلى إعادة إنتاج و المحافظة على تواصلها القرابي .